الفقر
La pauvreté

"سأل بوذا أتباعه

"من منكم سيطعم الجائعين؟"، عندما كان الجوع يعض بأنيابه في (شرافاستي)

فحنى الثري (راتناكار) رأسه ثم قال: "إن ثروتي كلها لا تكفي لإطعام الجائعين".

أما (جايسن) قائد جيش الملك فقال: "وددت لو بذلت دمي، ولكن لا يتوافر طعام كاف في بيتي".

وتنهد (دارما بال) الذي يملك أراضي شاسعة:

إن إله الهواء الجاف قد أصاب حقولي كلها بالجفاف. ولا أدري كيف أسدد الضرائب للملك".

وعندئذ نهضت (سوبريا)، ابنة المتسول وقالت بلطف: "أنا سأطعم البؤساء.

كيف؟ صاح الجميع باستغراب. كيف يمكنك تحقيق نذرك هذا؟

قالت (سوبريا): إني أفقركم جميعاً.. وتلك هي قوتي. أما ثروتي والوفرة اللازمة لي فسأجدها في بيت كل واحد منكم"[١].

---

(١) رابندرانات طاغور، "سلة الفاكهة"، النذر الغنائي (جيتانجالي)، باريس، غاليمار، ١٩٩٩م، ص١٧٣.
Rabindranath Tagore, "La Corbeille de fruits", L' Offrande lyrique (Gitânjali), Paris, Gallimard, 1995, p. 173.
لقارن بما نشر بترجمة خليفة محمد التليسي بعنوان: هكذا غنى طاغور، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، ١٩٨٩م، ص٥٢ – ٥٣. المترجم.

هذه الحكاية الغريبة كل الغرابة كتبها الشاعر الكبير، والفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور. ما الفقر؟ ذلك في الواقع هو السؤال الذي تطرحه الحكاية، على الرغم من أنه ظهر بغرابة مفهوم آخر مقابل، ويتميز بوضوح من الأول، إنه مفهوم البؤس الذي يقرع ضحايا الجوع. هل بالإمكان حقيقة مساعدة أولئك الذين يعانون من الجوع، الذي يرمز هنا لكل الاحتياجات وكل الحاجات الضرورية، وكيف نساعدهم في عالم تتحول فيه المساعدة غالباً إلى تهديد، ويستفيد منها جوهرياً من كان أول الدعاة إليها؟ كيف يمكن العمل على أفضل الطرق لإعادة توزيع الثروات، وعلى أفضلها لإدارة موارد العالم؟ أليس هناك نموذج مثالي للفقر البهيج، الفقر الذي تمثله شخصية ابنة المتسول التي تسمح بفهم قوة الفقراء وثروتهم في عالم يهدده تضخم البؤس، يسمح أيضاً بتقديم البحث عن حلول ممكنة، واقعية وملموسة؟ وبذلك نكتشف أنه من غير المناسب أن نتحدث عن أنواع الفقر والفقراء على وجه العموم، وأن هناك أشكالاً مختلفة من الفقر، ليس بينها إلا القليل مما يمكن مقارنته، وأشكال إدراك مختلفة للفقر والغنى، ونكتشف أيضاً أن المواقف الاجتماعية أمام أشكال المعاناة والحرمان مختلفة كل الاختلاف. وبذلك، ننوي أن نعرض هنا، من منظور المعتقد الفلسفي والشعري لهذه الحكاية البوذية، بعض مظاهر مسألة الفقر.

١ـ ثقافات وأديان

1. Cultures et religions

إنه لمن الملاحظ أن الثقافات والأديان المختلفة فصلت القول فيما يمكن أن نصفه بأنه فنون الحياة التي يحتل الفقر فيها مكانة مهمة، [١٢٨] ولا علاقة لها ألبتة بالنقص، وعلاقة أقل من سابقتها مع التخلف. يلاحظ علماء الإناسة مع مارشال شالين[٢]

(٢) عالم إناسة أمريكي، ولد عام ١٩٣٠م. (المترجم)

Marshall Shalins أن "أهمية الجوع تتزايد نسبياً وحتمياً مع التقدم الثقافي"[٣] في المجتمعات البدائية، ويفسر برونسلاف مالينوفسكي[٤] Bronislaw Malinowski: "تنتظر بالطبع من إنسان يمتلك شيئاً أن يقتسمه، أن يوزعه، أن يكون حارسه وموزعه"[٥]. بذلك استطاعت المجتمعات المسماة مجتمعات العطاء أن تحتوي الجوع والنقص بفضل المعاملة بالمثل، وإعادة التوزيع، والإنتاج من أجل الاستخدام المنزلي، منضوية تحت لواء شرعة أخلاقية للفقر البهيج. وإن الحركة الدائرية وغير المنقطعة للعطاء أمر لا يمكن الاستغناء عنه لخلق الثروة ومضاعفتها.

والفرس والإغريق هم بلا شك أول من ترك كتابات حول الفقر والغنى. فالأفستا، النص المقدس للزرادشتية، ينقل أن زرادشت الذي لم يكن لديه أي سبب ليعد نفسه فقيراً بالمعنى الذي نعطيه عامة لهذه الكلمة يشتكي للإله أهورا مازدا Ahurâ Mazdâ فقره بالحيوانات[٦] الأليفة والكائنات البشرية. إن حقيقة أن يكون المرء أفضل من الفقراء لا تتعلق بالثروة وإنما بالكرم. وإذا كان أهورا مازدا يوصف بأنه عظيم وقوي فذلك لأنه يمثل، أعظم ما يكون التمثيل، القوة الروحية للعطاء وللكرم. والأرض أيضاً تمتلك تلك القوة لأنها "تحمل الجميع وتطعمهم".

وفي السياق ذاته يرى الحكيم سقراط أن كل كائن بشري يتمتع بقوة أساسية كامنة تسمو بالتمييز بين الفقر والغنى. والمهم هو أن يكون كل فرد واعياً بتلك القوة ويتعهدها بالعناية. تلك القوة التي تنتج أشكال الثروة والفقر كلها يمكن أن تحول بعض الفقر إلى ثروة

---

(٣) مارشال شالين، عصر حجري، عصر الوفرة، باريس، غاليمار، ١٩٧٦م، ص٧٩.
Marshall Shalins, Âge de Pierre, . Âge d' abondance, Paris, Gallimard, 1976, p. 79.

(٤) عالم إثنة وإثنولوج بولوني (١٨٨٤ – ١٩٤٢م). [المترجم]

(٥) برونسلاف مالينوفسكي، المغامرون من غرب المحيط الهادي، لندن، ١٩٢٢م، ص٩٧.
Bronislaw Malinowski, Argonauts of the Western pacific, Londres, 1922, p. 97.

(٦) Pasu= الحيوانات الأليفة، kammanar= الكائنات البشرية.

وبالعكس. ينبغي أن يعرف المرء كيفية السيطرة على رغباته. لذلك يقول سقراط، حسب ما نقله إكزينوفون Xènophon لكريتوبول Critobule، أحد أغنى مواطني مدينة أثينا:

إنني غني بما يكفي. ولكنك أنت يا كريتوبول، تبدو لي فقيراً كل الفقر، وإني أقسم بزيوس إنني في بعض الأحيان أرثي لحالك من كل قلبي[٧].

وآية ذلك أن خيار الفقر لدى سقراط هو علامة غنى وضمان خلوده، لأنه يسمح للمرء بمعرفة ماهية حاجاته الحقيقية، وبالتمييز بين الضروري والعابر. إن الجري وراء العابر هو منبع للفساد والتهاوي، الجسدي والأخلاقي في آن معاً. وستستمر رؤية سقراط تقليداً في الفقر الإرادي اتبعه الناس خلال مدة طويلة، وسمي في بعض الأحيان فقر "الروح". حينئذٍ يكون الفقر مرتبطاً بفضيلة العدالة والقدرة على التمييز والذكاء في الحياة، إنه أكثر من نقص المال أو الممتلكات المادية. ويتحدث أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م) في كتابه القوانين عن أولئك الأغنياء "المجبرين طول مدة حياتهم أن يحملوا الجوع في أعماق أنفسهم"[٨]، وفي كتابه الجمهورية نجده يشهّر بالأغنياء الذين يجرحون مشاعر الفقراء "بإبرهم، أي بأموالهم"، في حين أن الفقير "يقول لنفسه إن هؤلاء الناس لا يدينون بثروتهم إلا لتخاذل الفقراء"[٩]. وهو يقترح حينئذٍ حلاً يتمثل في مدينة فاضلة، تكون مدينة للحكمة، السياسة والأخلاق فيها مترابطان، تستخدم السياسة أداة للأخلاق في وجه من الوجوه، مدينة تكون فيها الممتلكات مشتركة (الكتاب الخامس من الجمهورية).

[١٢٩] وقد كان أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) متأثراً كل التأثر بعصره الذي كان يتسم بأزمة خطيرة سياسية واجتماعية تعود إلى خلل في توزيع الثروات، وإلى اختفاء

---

(٧) إكزينوفون، الاقتصادي، باريس، بايو، ١٩٩٥م، ص٣٢.

Xénophon, L'Économique, Paris, Payot, 1995, p. 32.

(٨) القوانين، ٨، ٨٣٢أ.

Les Lois, VIII, 832a.

(٩) الجمهورية، ٨، ١٠، ٥٥٥ه.

La République, VIII, 10, 555e.

الطبقة الوسطى. وفي إطار اهتمامه في الإسهام بإقامة توازن سياسي في أثينا وجد نفسه مدفوعاً إلى التفكير في مفهومي الفقر والغنى بربطهما بمفهوم وجود طبقة وسطى بين الطبقتين ؛ الطبقة الغنية جداً والفقيرة جداً. وهو لم يبدُ بذلك المراقب المتنبه للواقع الاجتماعي فقط بل أيضاً مؤسس فلسفة أصيلة للاعتدال، وإذا أردنا فلا بأس من استخدام مصطلح الوسطية. وفي كتابه **الأخلاق إلى نيكوماك**، يعرف أرسطو الفضيلة وبموقعها بوصفها :

وسطاً بين الإفراط والنقص... ما لا يتضمن لا تهويلاً ولا تهويناً... والغاية التي تضعها الفضيلة لنفسها يمكن أن تكون الوسطية الحكيمة... توازناً بين طرفين قصيين[١٠].

بالنسبة إلى المال، ويفسر قائلاً :

وإن الوسط الدقيق فيما يخص المال التي نعطيها أو نتلقاها تسمى الكرم، أما الإفراط والنقص فيسميان الإسراف والبخل[١١].

وفي كتاب السياسة يورد أرسطو نظريته في "الطبقة الوسطى" وفي الثروة المتوسطة التي تعادل فقراً متوسطاً :

وإذا كنا على حق إذ قلنا في كتاب الأخلاق إن السعادة تنحصر في الممارسة والمستمرة للفضيلة، وإن الفضيلة ليست إلا وسطاً بين طرفين، فينتج من ذلك بالضرورة أن تكون الحياة الأرقى حكمة هي تلك التي تلتزم هذا الوسط الذي في مقدور كل امرئ أن يبلغه... إذا افترضنا ذلك فإن كل دولة تشتمل على ثلاث طبقات متميزة : المواطنون الأغنياء جد الغنى، والمواطنون الفقراء جد الفقر، والمواطنون الموسرون الذين هم في الوسط بين ذينك الطرفين. ثم ليكن محل وفاق أن الاعتدال والوسط في جميع الأشياء هما أحسن ما يكون، وينتج من ذلك جلياً أن الملكية الوسطى أوفق من سواها في صدد الثروات. وآية ذلك أننا حينئذ نستطيع بسهولة كبيرة

---

(١٠) الأخلاق إلى نيكوماك، ١، ٦.

Éthique à Nicomaque, II, 6.

(١١) الأخلاق إلى نيكوماك، ٢، ٧.

الاستماع إلى صوت العقل... وأولئك الذين يمتلكون ثروة فائقة... لا يرضون بالخضوع للسلطة... أما أولئك الذين يعانون من الفقر المدقع فهم في حالة انحطاط سحيق...وحينئذٍ لا يرى في الدولة إلا سادة وعبيد ولا رجل واحد حر، فهنا غيرة حاقدة وهناك فخر صلف... إن أعظم حدث سعيد لدولة من الدول أن يكون مواطنوها ذوي ثروة متوسطة تسمح لهم بالعيش الكريم، ذلك أن كون بعض المواطنين يمتلك ثروة مفرطة، وآخرين لا يمتلكون شيئاً يفضي بنا إما إلى الديمقراطية المفرطة وإما إلى الأوليغرشية المحضة...[١٢]

إن "الثروة الحقة"، كما يوضح الفيلسوف هي المكونة من الممتلكات "الضرورية للمعيشة والمفيدة للجماعة السياسية أو الأسرية"[١٣]. وإذا كانت الطبيعة تقدم "للبشر الغذاء واضعة تحت تصرفهم الأرض أو البحر أو أي مصدر آخر فإن مهمة رئيس الأسرة تنحصر في أن يتصرف بهذه الهبات منطلقاً من الموارد التي سبق للطبيعة أن قدمتها فيوزعها توزيعاً عادلاً"[١٤]. لأنه من الصعب، بل من المستحيل إتيان الفضيلة عندما تكون بلا موارد. وفي هذا الإطار نجد أرسطو، بدل من أن يتحدث عن حياة سعيدة، يتحدث عن "حياة تكفي بذاتها"، حياة [١٣٠] عن اكتفاء ذاتي للحياة يمكن أن يفعّله أولئك الذين يملكون "قدراً متوسطاً" من هبات الثروة، أي "الطبقات الوسطى".

---

(١٢) السياسة، ٤، ١١.

Politique, IV, 11.

اقارن بالترجمة العربية لكتاب السياسة لأرسطوطاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، منشورات الفاخرية، الرياض بالاشتراك مع دار الكاتب العربي في بيروت، بلا تاريخ، ص٣٤٤ - ٣٤٦. وقد ورد قول أرسطو المقتبس أعلاه في الترجمة العربية في الكتاب السادس، الباب التاسع. المترجم.

(١٣) السياسة، ١، ٨. اقارن بالترجمة العربية لكتاب السياسة، المصدر السابق، ص١٢١. الباب الثالث، الفقرة ٢٠. المترجم.

(١٤) السياسة، ١، ١٠. اقارن بالترجمة العربية لكتاب السياسة، م. س، ص١٢١، الباب الثالث، فقرة ٢١. المترجم.

أما في الرسالات التوحيدية فإن الفقر ليس في حد ذاته شرطاً اجتماعياً، وليس في القصص التوراتية مصطلحات تخص الفقر والفقراء، فعلى سبيل المثال، ليس بنو إسرائيل المقيمون في مصر "بفقراء"، وإنما مضطهدون مستعبدون. لقد كُتب على الشعب اليهودي أن يتشارك في الثروة التي أنعم بها عليه يهوا وأن يقتسمها. وبعد حين، وفيما كان المسيح عليه السلام يعلن: طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات[١٥]، كان النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، يعلن: الفقر فخري...[١٦]، وهذا ما يشكل في الحالتين دعوة إلى الفقر الطوعي، المختار. ويدين المسيح عليه السلام بجلاء كل ثروة قائمة على الغياب التام لأي رأفة تجاه المعدمين. وهو يذكر رجلاً غنياً بأن ثروته ليست إلا وهماً، والثروة الحقة هي في مكان آخر: الحياة أفضل من الطعام[١٧]. والنبي محمد صلى الله عليه وسلم كان عرضة لغضب تجار مكة الأغنياء وحقدهم، أولئك التجار الذين كان يأخذ عليهم طريقة حياتهم وشدتهم. إن الفقر الطوعي هو هنا شرط للكائنات الاستثنائية والفاضلة.

إن مصطلح المشاركة[١٨] Koinônia، حسب الحواريّ بول Paul، وهو ميزة تميز المجتمع المسيحي البدائي، وتترافق بأشكال مختلفة من أشكل التشارك في الثروات، كان مصدر إيحاء لموقف المسيحيين الأوائل، إبان أكثر من قرنين بعد المسيح. وبعد حين أوضح المسألة جان كريسوستوم[١٩] Jean Chrysostome فقال:

---

(١٥) إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الآية ٣.

(١٦) جاء في كشف الخفا ومزيل الالتباس للعجلوني: الفقر فخري، وبه أفتخر. قال الحافظ ابن حجر باطل موضوع. ولم تخرجه المؤلفة، ولم تصرح بمصدرها. (المترجم)

(١٧) إنجيل لوقا، الإصحاح ١٢، الآية ٢٣.

(١٨) كلمة إغريقية.

(١٩) أحد آباء الكنيسة الإغريقية، ولد في إنطاكية عام ٣٤٩ وتوفي عام ٤٠٧م، كان أسقف القسطنطينية. كان بليغاً، وأدت حماسته للإصلاح وصرامته إلى نفيه وموته. (المترجم)

ليس الطبيعة هي الأمر الوحيد المشترك بيننا، بل أمور الروح أيضاً. أليس من العبث بعد هذا أن نبدو فيما يتعلق بالثروة طماعين بما يتجاوز كل المقاييس؟ لنتجنب تلك الآلام ولنعمل على إسداء الصدقة بكل ما نستطيع من قدرة، لأنها هي ملكة الفضائل[٢٠].

وإنه لمن المفيد ألا يطفح الكيل، وأن يتموضع الإنسان بين الثروة والبؤس، وأن يستطيع المشاركة عبر الصدقة في التوزيع العادل للثروات. وعندما يوضح الحكيم الصيني لاو تسو Lao Tseu أن "من يقنع بما لديه هو الثري الحقيقي"[٢١]، أو عندما يعرف الصوفي الفارسي السهروردي[٢٢] الغني بأنه "ذلك الذي يمتلك في ذاته وفي كماله ما يتجاوز به الآخرين"[٢٣]. وإن القيمة التي خصت بها الثروة تحيل إلى تعريف للفقر الروحي وللوسط العادل.

إن الفقر لدى المتصوفين الإيرانيين، الذين ساروا على خطى الزرادشتية والفكر الإغريقي والإسلام هو الغنى الأسمى عندما يتأسس على التحرر الطوعي للكائن البشري من كل استعباد لغير المفيد وغير المجدي. ويعلن المفكر الكبير جلال الدين الرومي في حكاية صياد العصافير:

---

(٢٠) جان كريسوستوم، مقتبسة عن أديلبير ج. هامّن Adalbert G. Hamman، أثرياء وفقراء في الكنيسة القديمة، باريس، ديكلي دو بروير Desclée de Brouwer، ١٩٨٢م، ص٣١.

Jean Chrysostome, cité par Adalbert G. Hamman, Riches et pauvres dans l' Eglise ancienne, Paris, Desclée de Brouwer, 1982, p. 31.

(٢١) لاو تسو، تاو – تو – كينغ، قول مأثور ٣٣.

Lao - Tseu, Tao - tö - king, aphorisme 33.

(٢٢) الشهاب السهروردي (٥٤٩ – ٥٨٧هـ = ١١٥٤ – ١١٩١م) يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، السهروردي: فيلسوف، اختلف المؤرخون في اسمه. ولد في سهرورد (من قرى زنجان في العراق العجمي) ونشأ بمراغة، وسافر إلى حلب، نُسب إلى اختلال العقيدة. فأفتى العلماء بإباحة دمه، فسجنه الملك الظاهر غازي، وختفه في سجنه بقلعة حلب. (المترجم)

(٢٣) السهروردي، كبير الملائكة الأحمر، ترجمة هنري كوربان، باريس، فايار، ١٩٧٦م، ص٥٧.

Sohravardi, L' Archange empourpré, trad. d' Henri corbin, Paris, Fayard, 1976, p. 57.

مثل الحمار خبزه أمنية... لا تشاركه... وسمه ميتاً، ما دام باحثاً عن الميتة[٢٤]. [١٣١]

٢– "عندما يطرد البؤس الفقر"

2. "Quand la misère chasse la pauvreté"

إنه لمن الملاحظ أنه بدءاً من الزمن الذي ازدهرت فيه المدن والحضارات القائمة على التجارة في الغرب في القرن الثالث عشر الميلادي ترافق ظهور حاجات جديدة، وتراكم الملكيات الفردية مع تفاقم البؤس. حتى ذلك الحين كان العوز في الأعم الأغلب عارضاً، ونادراً ما يعد أمراً واقعاً، وكانت روابط التضامن في أوج انتعاشها. ويحرص عالم اللاهوت توما الإكويني في القرن الثالث عشر الميلادي كل الحرص على التمييز بين الفقر والبؤس، بين نقص غير المجدي ونقص الضروري، مقتفياً بذلك أثر كبار القديسين "الفقراء بالروح"[٢٥]، فرانسوا داسيز[٢٦] Francois d'Assise، القديس دومينيك[٢٧] Dominique أو إليزابيت دو تورينج[٢٨] Elizabeth de Thuringe. ولكن

---

(٢٤) جلال الدين الرومي، المثنوي، البحث عن المطلق، ترجمة إيفا دو فيتراي ميروفيتش و د. مورتازافي، باريس، منشورات روشيه، ١٩٩٠م، ص ١٤٠٥. [قارن بترجمة المثنوي العربية، ترجمه وشرحه وقدم له د. إبراهيم الدسوقي شتا، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٦ مجلدات، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٦، ص٧٠ "مناظرة الطائر مع الصياد عن الزهد ومعنى الزهب"، فقرة ٤٩٠. المترجم]

Djalâl - ud - Dîn Rumi, Mathnawî, la Quête de l' Absolu, trad. Eva de Vitry Meyerovitch et D. Mortazavi, Paris, Ed. Du Rocher, 1990, p. 1405.

(٢٥) جاء في إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الآية ٣: "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات". المترجم]

(٢٦) رجل دين إيطالي (١١٨١ – ١٢٢٦/٨٢م)، مؤسس رهبانية الإخوة الفرنسيسيين التي تتميز بالإكثار من الصلوات، وحب الفقر، والسعي إلى التنصير واحترام الخلق. المترجم]

(٢٧) القديس دومينيك، مؤسس الرهبانية الدومينيكية (نحو ١١٧٠ – ١٢٢١م). محب الفقراء، والعمل الفكري والمثابرة. المترجم]

(٢٨) قديسة هنغارية، كانت من أسرة غنية، ولكنها وضعت نفسها وكل ما تملك في خدمة الفقراء، يقال إنها توفيت عام ١٢٣١م وعمرها ٢٤ سنة، بعد أن تزوجت وعمرها أربع عشرة سنة. المترجم]

العلاقات الاجتماعية انقلبت رأساً على عقب في القرن الرابع عشر الميلادي بعد وباء الطاعون الأسود في أوروبا، إذ ازداد احتقار المعوزين، وأصبحوا يعاملون معاملة سيئة، بل إنهم سيعاملون قريباً معاملة الأشرار؛ ولعله من الدال كل الدلالة في هذا المجال أن جثثهم أصبحت من الآن فصاعداً توارى الثرى في أماكن منفردة في "حفر الفقراء"[٢٩]. وحتى الفقر الطوعي لرجال الدين كان موضع نقاش وفي بعض الأحيان موضع استهجان. والبؤس يعمق الشعور بالاغتراب والتوتر الاجتماعي. وفي العصر الحديث أصبح الفقراء من الآن فصاعداً، سواء كانوا من الغشاشين في إسبانيا في العصر الذهبي، أو من متسولي بلاد الفلاندر (في بلجيكا)، أو الشعوب المستعمرة في أمريكا اللاتينية، حتى البؤساء الذين تحدث عنهم فكتور هيغو Victor Hugo، أصبحوا، أكثر المعدمين، يرزحون تحت وطأة كل المصائب، مقسمين إلى طبقات، محكوم عليهم بالعار و"بالعزلة التامة". الفقر يماثل البؤس.، وفي القرن الحادي والعشرين، وفي سياق العولمة، وفي حين أن إدراك الفقر بوصفه بؤساً يفرض على المستوى الدولي نفسه عبر تدخل المنظمات، المسماة: "منظمات التنمية"، فقد أصبح يعبر عنه من الآن فصاعداً بعدد من الكلمات: نتحدث عن التخلف والنمو، وعتبة الفقر، العوز، النمو صفر، ... إلخ. ونتحدث بدرجة أقل، أو لا نتحدث ألبتة، عن أوجه القصور في ذلك النمو الاقتصادي. وأصبح الفقير على المستوى العالمي – الفقير "الكوني" يحدد عبر دخله الذي يقل عن دولار واحد أو دولارين في اليوم، باعتبار أن الدولار أصبح المرجع "الكوني"، بفعل هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية، أو بفعل إدراكها تلك الهيمنة. ولكن الفلاح الهندي يمكن له منذ زمن إطعام أسرته، في حين أن الأمريكي في مثل حالته مهدد بالتهميش والموت. لذلك لم يكن تعريف عتبة الفقر ألبتة

---

(٢٩) قارن بـ ميشيل موللات، دراسات في الاقتصاد والمجتمع في الغرب القروسطي، من القرن ١٢ إلى القرن ١٥ الميلاديين، لندن، ١٩٧٧م؛ الفقراء في القرون الوسطى، باريس، هاشيت ١٩٧٨ن، أعيد طبعه عام ١٩٨٤م.

Cf. Michel Mollat, Études sur l' économie et la société de l' Occident médiéval, 12 - 15 siècle, Londres, 1977; Les pauvres au Moyen - Age, Paris, Hachette 1978, rééd. 1984.

تعريفاً نهائياً. ولكن الإنسان في كل الأحوال متصور أن له حاجات لا نهاية لها يفرضها عليه اقتصاد العولمة، والفقير باعتباره معرفاً تعريفاً أجوف عبر ما لا يملكه، في حين أن الشخص "الغني" معرف على الدوام بما يملكه. الفقير يتلقى دون أن يستطيع رد ما يتلقاه، والفقر المعاصر كما أشار إلى ذلك الأنثروبولوجي روفين أوجيان[٣٠] Ruwen Ogien يشكل قطيعة جذرية مع نظام الهبة والهبة بمقابل[٣١].

أما فيلسوف التاريخ جورج سيميل[٣٢] Georg Simmel فقد برهن أن أفظع ما في هذا التعريف المعاصر للفقر هو رسوخه وعشوائيته:

إن الفقر المادي العابر منفصل عن الفقير، شخصية أصابتها العدوى في هويتها الاجتماعية. ويتوقف الفقر عن أن يكون مزية مراجعها متغيرة. إن تثبيت حقيقة جوهرية تم إدراكها بثمن هو التحديد العشوائي في التحليل الكمي أو الوظيفي، أصبح أمراً مثيراً. إن الشروط التي جعلت هذا الوصف ممكناً تنتج تعريفاً للفقير الذي هو هدف الآخرين، منفصل عن محيطه. إن صفات الفقير مفروضة من جانب واحد، يفرضها وكلاء مختصون مفوضون ويسيرون وفق برنامج يبدو لهم بديهياً[٣٣].

[١٣٢] حينئذ يكون الفقير عرضة لخطر أن يصبح حقاً قصة تخيلية، معرفاً بالنسبة إلى الثروات والخدمات المخصصة لإرضاء فاعل جعلته المقاربات الإحصائية التي أجريت حوله وحدها فاعلاً مجرداً. إن تلك القصة التخيلية التي تمنحه وجوداً قانونياً يجعل منه كائناً يرمجه الخبراء والمخططون على المستوى الدولي، الكوكبي، بين حاجات ابتدعت له وموارد لن يستطيع أبتة امتلاكها. وكل هذا يترافق بالطبع مع

---

(٣٠) فيلسوف فرنسي معاصر، ومدير أبحاث في المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، يهتم بالفلسفة الأخلاقية. [المترجم]

(٣١) روفين أوجيان، نظريات عادية للفقر، باريس، المطبوعات الجامعية، ١٩٨٣م.

Ruwen Ogien, Théories ordinaries de la pauvreté, Paris, PUF, 1983.

(٣٢) عالم اجتماع ألماني (١٨٥٨ – ١٩١٨م). [المترجم]

(٣٣) جورج سيميل، الفقراء، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٩٨م.

Georg Simmel, Les pauvres, Paris, PUF, 1998.

إمكانية التعرض لخطر محقق من قبل هو خطر تكييف التخييلات، وبالتالي المعاناة التي لا تنتهي من الحقد و من الضغينة، وبإمكانية التعرض لخطر "إشعال العالم" في يوم من الأيام، إذا استخدمنا عنوان كتاب آمي شوا الذي ذكرناه في فصل سبق[٣٤]. إن تلك القصة التخييلية لا علاقة لها ألبتة بابنة المتسول في حكاية طاغور، المتألقة والكريمة، الفقيرة فقراً بهيجاً، التي نذرت على نفسها إطعام الجائعين في الجائحة التي اجتاحت شارافاستي Sharavasti، والقادرة بكل استقلالية على الحكم على ما يمكن أن يسمح لها بمواجهة المحنة مواجهة حقيقية.

لقد اتضح لمجيد راهنما، ذي الأصول الإيرانية، كان دبلوماسياً ووزيراً، وعضواً في المجلس التنفيذي لليونيسكو، وكلفته الأمم المتحدة بوضع برنامج الأمم المتحدة للتنمية في مالي، ثم في أنحاء العالم. نشأ في جو من الروحانية الصوفية، وكان طالباً متفوقاً، اقتنع بالأفكار الغربية، وبأهمية المعتقد في التقدم، وقد جاب العالم من أقصاه إلى أدناه. ثم أصبح مواطناً فرنسياً، وهو يدرّس اليوم في كاليفورنيا. لقد اتضح له في كتابه: عندما يطرد البؤس الفقر، الذي صدر في عام ٢٠٠٣م، وهو كتاب يتحدث عن تجربة حياة حافلة، أن إيديولوجيا الاستهلاك عندما تهدم مجتمعات من المؤكد أنها هي فقيرة، ولكنها منظمة، هي بذلك تخلق البؤس "ذلك "الفقر المعصرن". يبدأ البؤس عندما تهدم الروابط التي تربط البشر بالبيئة الفيزيائية والاجتماعية والثقافية. وإن الأهداف الجديدة للنمو الاقتصادي الموجه نحو التصدير يشجع ما يسميه "ممارسات الهيمنة". وهو يؤكد:

إن البناء الاجتماعي للفقر على النطاق العالمي سواء كان على المستوى الفردي أو على المستوى الوطني يخدم بإفراط لا حدود له مصلحة نظام إنتاج موافق لمصالح الأغنياء والمسيطرين أكثر مما يخدم مصلحة الفقراء الذين يزعم أنه يساعدهم[٣٥].

---

(٣٤) عنوان الكتاب: العالم يحترق، انظر الحاشية (١٧١). (المترجم)

(٣٥) مجيد راهنما، عندما يطرد البؤس الفقر، باريس، فايار/أكت سود، ٢٠٠٣م، ص١٤٠. انظر الحاشية ١٢١. المترجم.

وآية ذلك أن الفقراء مدفوعون إما:

إلى تحمل خطر الاجتثاث للاندماج في عالم "التقدم"، حيث سيكون الجميع محكوماً عليهم بالفقر المعصرن، وإما إلى العودة إلى جذورهم في أرض أحلتها أفواج المستعمرين المتتالية أو أجدبتها أو لوثتها... وإن أكثر نسب النمو ارتفاعاً لم تستطع في أي مكان الإجابة إجابة مقنعة عن الأسئلة الحقيقية، بما في ذلك على المستوى المادي.

وفي هذا السياق يحكي مراسل صحيفة لوموند Le monde في نيودلهي، جوليان بويسو Julien Bouissou، في مقالة له ظهرت في ١٢ سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٨م، كيف يؤمن الفقراء ترويج المنتجات الفاخرة في مجلة فوغ أنديا Vogue India الصادرة في أغسطس "آب" ٢٠٠٨م:

إنهم فقراء، أجسادهم نحيلة ووجوههم مدورة صغيرة... وعلى ذراعي امرأة عجوز لا أسنان لها طفل يلبس مريلة من ماركة فينديFendi، قيمتها ١٠٠ دولار. وفي ساحة بيت مبني من الطين يظهر فلاح أشعث أغبر يلبس قميصاً ممزقاً، ويحتمي من الشمس بمظلة من ماركة بوربيري Burberry ثمنها ٢٠٠ دولار. وإن أسماء الماركات الفاخرة هي الوحيدة المذكورة في الشروح. أما الأشخاص فهم أشخاص مجهولون...[٣٦].

[١٣٣] وقد كان تصريح رئيسة تحرير المجلة بسيط كل البساطة:

لقد أردنا عرض سلع جميلة على الموضة في سياق مهم، كله جاذبية. لقد رأينا جمالاً فائقاً، وبراءة، ونضارة على الوجوه التي عرضنا لها.

---

(٣٦) صحيفة لو موند، ١٢ سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٨م، جوليان بويسو، "الهند تطرح موضة الفقير المتأنق".
Le Monde, 12 septembre 2008, Julien Bouissou, "L'Inde lance la mode du pauvre chic".

أوقد عدنا إلى أصل المقالة في الصحيفة ووجدنا أن النص الذي اقتبسته المؤلفة هو في الأصل هو كالتالي:
ما زال التخلص من الفقر في الهند بعيد المنال ولكن النظرة إليه تتغير. "والمشكلة أن الهنود الأثرياء أصبحوا كالعميان لا يرون الفقر من حولهم" كما يرى بافان ميهتا مؤلف كتاب: عندما تستيقظ الهند: *Quand l'Inde s'éveillera* ـ المترجم]

هل هناك من الآن فصاعداً في الهند نظرة جديدة إلى الفقر؟ : يرى بافان ميهتا Pavan Mehta مؤلف كتاب : عندما تصحو الهند :

"والمشكلة أن الهنود الأثرياء أصبحوا كالعميان لا يرون الفقر من حولهم"

إنه لمن المدهش أن النظرة لأصحاب العاهات والنصوص هي ذاتُ النظرة إلى الفقراء. والبؤس هنا يطرد الفقر. هل تستطيع حقاً صور الأبهة التي هي إخراج سينمائي خالص، واستثمار للبؤس، دفع أغنياء الهنود إلى التفكير بأن كثيراً من الهنود لا يحصلون على الثروة، وأن هناك حوالي ٤٥٦ مليون هندي، حسب التقديرات الأخيرة للبنك الدولي يعيشون بأقل من ١,٢٥ دولار في اليوم؟ إن بعضهم يزعم ذلك في الهند وفي غيرها من البلاد.

أما مجيد راهنما فيقول :

إن فقراء أكثر حنكة وأكثر ارتباطاً بتقاليد البهجة سعوا إلى ابتداع لغة تعبر عن تجاربهم الخاصة فعرفوا بذلك كيف يصنعون من ذلك أداة بارعة لمتابعة طرق حياة بديلة تتوافق مع تطلعاتهم الخاصة، وتأخذ في الحسبان، وبالقدر نفسه ما اعتادوا عليه من بساطة وكرم، وما يقتضيه مجتمع معاصر، كل شيء فيه بحاجة إلى إعادة التبصر فيه[٣٧].

لذلك يرى مجيد راهنما أن طريق إزالة البؤس لا ينبغي أن تمر كلها عبر إعادة توزيع أفضل للثروات، وإنما عبر إعادة اكتشاف ثروة الفقر التي ليس لها بالطبع أي علاقة بالبؤس، في إطار أن ذلك الفقر البهيج سمح في الثقافات المختلفة للسواد الأعظم من الكائنات البشرية بمواجهة ظروف الحياة الطارئة وتمتين رابطهم الاجتماعي. إن ندرة الموارد الطبيعية التي تسمح لبعض الأشخاص أو لبعض الجماعات بتأمين احتكار تلك الموارد لتأمين أوضاع الهيمنة، تلك الندرة التي هي اليوم في مركز اهتمام خبراء العولمة وحكوماتها، هي اليوم سبب كل مظاهر العنف الإثني، وتحويل الأديان إلى أدوات، والانتماءات القومية. ولكن تلك الندرة كانت في أزمنة أخرى، وفي

(٣٧) مجيد راهنما، م. س، ص١٤١.

سياقات أخرى سبباً في ابتكارات نفيسة، مثال ذلك حضارات الصحارى القطبية أو العربية أو الصينية، ... إلخ، فالندرة في تلك الحضارات سمحت بظهور تجارب اكتفاء ذاتي، وبدورات اقتصادية سبقت زمنها، وتم تحويل النقص إلى ميزة يمكن احتمالها. إذنْ ينبغي أن يوضع الفقر، ولكنه الفقر الذي لا علاقة له ألبتة بالبؤس، في مركز الاهتمامات الحياتية، ذلك الفقر الذي هو قيمة نفيسة وهشة، شأنه شأن الحرية.

٣- الطريق الوسط

3. La voie moyenne

إن الفيلسوف المكسيكي كارلوس ماك كادن Carlos Mc Cadden الذي يعمل في المعهد التكنولوجي المستقل في مكسيكو (ITAM) يلتقي مع مجيد راهنما الذي يرسم بمقترحاته حدود النقاش الضروري حول الأسباب الجوهرية لإنتاج البؤس وأنواع المظالم، ويطرح سؤال الفقر في [١٣٤] المكسيك انطلاقاً من أنه" ليس في المكسيك مسألة اسمها العدالة الاجتماعية: الطبقة الوسطى".(٣٨)

أليس إعادة اكتشاف الوسطية الخالصة الفاضلة حسب أرسطو أمراً جوهرياً لإعادة اكتشاف مفهوم الفقر بوصفه ثروة؟ ألا يحيل الفقر البهيج بشرعته الأخلاقية المتمثلة في الحياة البسيطة والمتضامنة، بلا أي شكل من أشكال الحسد ولا الرغبات الهوسية، الفقر نفسه الذي وجدناه في حكاية ابنة المتسول لطاغور، إلى سياسة "تنمية" الطبقات المتوسطة، للوساطة الاجتماعية بين الثروة والبؤس؟ وإذا كانت المشكلة الرئيسة في المكسيك هي بلا شك التوزيع غير العادل للثروات فإنها لا يمكن أن تُعدّ بين أكثر البلاد فقراً؛ بل إن اقتصادها حسبما يقول قادة الجمهورية المكسيكية يحتل المرتبة التاسعة بين اقتصادات العالم. وإبان عشرين عاماً اتضح أن نمو الناتج الإجمالي المحلي

---

(٣٨) أشكر لكارلوس ماك كادن أنه زودني بالمقالة التي ظهرت في مجلة دراسات قسم الدراسات العامة في المعهد التكنولوجي المستقل في مكسيكو، عام ٢٠٠٨م.

Estudios du Departamento de Estudios generales de l' ITAM en 2008.

فيها متوافق مع تراجع كبير في توزيع الثروات. وقد ظهر من تحقيق وطني حول دخول الأسر ومصاريفها في عام ٢٠٠٥م أن ٤٨,٩مليون مكسيكي يعيشون ظروف الفقر. وتظهر المكسيك اليوم بين البلاد التي فيها أسوأ توزيع للثروات بعد ناميبيا، وليسيوتا، والبرازيل، وأفريقيا الجنوبية، وكولومبيا وغواتيمالا، من بين دول أخرى، في حين أن الدول الإسكندنافية أو اليابان تصنف بين الدول التي فيها أحسن توزيع للثروات.

وهناك طرفة تستحق أن تروى هنا[٣٩]. كان المواطن الكليفورني من أصل مكسيكي أنطونيو فيلاريغوزا Antonio Villaraigosa يرأس مجلس كاليفورنيا، وتلقى دعوة للعشاء في منزل رجل الأعمال كارلوس سليم Carlos Slim، الذي صنف مؤخراً صاحب الثروة الأولى في العالم. وقد سئل أن يعبر في بضع كلمات عن كيفية تصوره الفرق بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك، وكان جوابه الآتي: "هذا بسيط جداً، لو أن أسرتي بقيت في المكسيك لكنت الآن منهمكاً للخدمة على هذه الطاولة". وفي غمرة اضطراب المدعوين أضاف الرجل الذي أصبح منذ عام ٢٠٠٥م محافظ لوس أنجلوس: "ولكنهم رحلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واليوم أنتم من ينظم هذا العشاء على شرفي". لقد امتنع فيلاريغوزا عن انتقاد "بلاد أسلافه"، وفسر ذلك بالقول: "إن مفتاح ازدهار ديمقراطيتنا (الأمريكية) وترسخها يقوم على إيجاد طبقة وسطى قوية. وتكمن قوتنا في حقيقة أن هذا البلد فيه طبقة وسطى مهمة وقوية... في بلد الثروة الفاحشة والفقر المدقع ليس للطبقة الوسطى قدرة على التزايد والنمو. الطبقة الوسطى هي على الدوام القطاع الذي يقود أي بلد".

وبعد أن كان كارلوس مالك كادن قد أمل أن يقوم الرئيس فيسانت فوكس Vicente Fox بدعم الشركات الصغيرة والمتوسطة من أن أجل أن يعم الخير الطبقة الوسطى المكسيكية فقد ثبت له بمرارة، بعد نهاية الولاية الرئاسية للرئيس المذكور أن الشركة الدولية

---

(٣٩) قارن بـ إصلاح، جلسة دولية، ٦ سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٥م، ليوناردو فاليرو "السر في الطبقة الوسطى".
Cf. Reforma, Sección Internacional, 6 septembre 2005, Leonardo Valero, "El secreto está en la clase media".

الكبرى المكسيكية أو الأجنبية هي التي ما زالت تسيطر على البلد لمصلحة عدد قليل من الأشخاص. المكسيك بلد العبيد والسادة كما يلاحظ ذلك مكرراً ما قاله أرسطو:

تلك الثروة لم تقتسم اقتساماً متوازناً. لذلك يمكننا بصعوبة أن نأمل بأن هذا النمو المادي سيكون مترافقاً بتقدم أخلاقي، بتقدم في العلوم والفنون، وبفرص إنسانية متزايدة.

ويخلص الفيلسوف المكسيكي إلى الإعراب عن أمله في إيجاد وزارة مكسيكية للطبقة الوسطى.

أما في فرنسا فالوضع مختلف، ولكن الفجوة بين الأفراد تميل أيضاً إلى الاتساع. ولعلنا نذكّر هنا بالأرقام التي وردت في دراسة نشرت في ١٩ يوليو "تموز" ٢٠٠٨م، نشرها المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية – إنسي insee: ارتفعت نسبة العائد "الوسطي" للمواطنين الفرنسيين إلى ١٤٧٠ يورو في الشهر [١٣٥] في عام ٢٠٠٦م، بارتفاع قدره ١,٧٪. وأن نحو ٧,٩ مليون شخص، أي ١٣,٢٪ من المواطنين الذين يعيشون تحت خط الفقر، وهذا يتوافق مع مستوى حياة يساوي مستوى حياة يصل إلى أقل من ٨٨٠ يورو في الشهر، والـ ١٠٪ الأكثر غنى يصل مستوى الحياة عندها إلى ٣٣١٩٠ يورو في السنة[٤٠]؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن فوارق مستوى الحياة داخل هذه الشريحة البالغة ١٠٪ من الشعب، وهو الأمر الذي لا تعيره الإنسي Insee أي اهتمام، هي فوارق كبيرة. ويشير سيرج بوغام Serge Paugam، مدير أبحاث في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية EHESS إلى خطر نظام يكون وقتياً ومدعوماً وليس له أي علاقة بالتضامن، وليس هو إلا معالجة لأشكال العنف الممكنة التي تتولد عن البؤس[٤١]. ويلاحظ فيليب مانيير Philippe Manière، مدير عام

---

(٤٠) المصدر: إنسي بروميير، رقم ١٢٠٣، يوليو "تموز" ٢٠٠٨م.

Source: Insee Première, n 1203, juillet 2008.

(٤١) سيرج بوغام، إعمال النظر في التضامن، إسهام العلوم الاجتماعية، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ٢٠٠٧م.

Serge Paugam, Repenser la solidarité. L' apport des sciences socials, Paris, PUF, 2007.

معهد مونتيني Montaigne في مقالة ظهرت في المجلة الشهرية تحديات ليزيكو Enjeux les Echos الصادرة في يونيو "حزيران" ٢٠٠٨م:

أن الفقراء والأغنياء لم يعيشوا أليتة منذ عام ١٩٤٥م بعيدين عن بعضهم في فرنسا. إنه انشطار يتطلب مقاربة سياسية جديدة... وتتميز فرنسا بانتهاج مبدأ الحتمية الاجتماعية المتنامية ومبدأ زواج المضعالة[٤٢] بين النخبة. ويكفي أن نذكر مؤشراً واحداً: لقد هبطت نسبة بنات العمال والموظفين في المدارس الكبرى خلال ثلاثين عاماً من ٣٠٪ إلى أقل من ١٠٪ من المقبولين[٤٣].

إن التعليم هو مؤثر أساسي في كل بلاد العالم لمحاربة البؤس. وإن واحداً من أكبر النجاحات التي حققتها الحكومة البرازيلية بقيادة الرئيس لويز إيناسيو لولا داسيلفا Luiz Inacio Lula da Silva تتمثل في تخصيص منحة أسرية[٤٤] bolsa familia، تجتمع فيها عدد من آليات المساعدة للأسر الفقيرة والمعدمة، شرط أن يكون أبناؤهم منتظمين في التعليم، وأن يبرزوا دفتر تلقيحات محدّث؛ ويفضل أن تعطى النقود إلى الأم في الأسرة التي يفتح لها حساب وبطاقة للسحب تصدرها البنك الاقتصادي الفدرالي، وهو بنك حكومي وثاني المؤسسات في البلد. وتسهم تلك المبالغ في محاربة الفقر والتقليل من حالات عدم المساواة، على الرغم من أنها تظل أقل من الحد الأدنى للراتب بثلاث أو أربع مرات؛ إنها تسمح على وجه الخصوص بتوسيع الالتحاق بالتعليم وتحث الشريحة الأكثر فقراً على ممارسة حقوقهم في المواطنة والاندماج في الحياة الاقتصادية وفي السوق.

---

(٤٢) الزواج بين أبناء الأسر الثرية للحفاظ على الثقافة والثروات. [المترجم]

(٤٣) تحديات ليزيكو، يونيو "حزيران" ٢٠٠٨م، ص٩٢.

(٤٤) منحة أسرية: هو برنامج اجتماعي في البرازيل، يهدف إلى محاربة الفقر وتحقيق التنمية في ظل رئاسة لويز إيناسيو لولا داسيلفا. وهو جزء من برنامج أوسع يسمى: حالة جوع صفر. وهو برنامج "الشرطي" الذي يكون فيه دفع المساعدات مشروطاً بالتزامات معينة مثل التعليم. [المترجم]

وفي الهند، أطلقت الحكومة الهندية منذ عام ٢٠٠١م برنامج "وجبة إفطار في اليوم"، توزع بالمجان في غالبية مدارس البلاد لرفع نسبة الانتظام في التعليم بين أطفال الأسر الأكثر فقراً بتعويض تلك الأسر عن نقص الموارد الذي ستعاني منه بسبب التحاق أبنائها بالمدرسة. أما على المستوى الدولي فإن السياسات الكبرى الموضوعة للمساعدة تبدو في بعض الأحيان غير ملائمة. ففي عام ٢٠٠٢م قدم عالم الاقتصاد جوزيف ستيغليز Joseph Stigliz ، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠١م، ونائب رئيس سابق للبنك الدولي في كتابه الوهم الكبير La grande Désillusion أمثلة عن الطريقة التي استطاع بها صندوق النقد الدولي زعزعة شعوب بأكملها ذاهباً بعكس هدف المساعدات التي كان يود تقديمها. ويصرح مجيد راهنما الذي عمل في برنامج الأمم المتحدة للتنمية (PNUD):

إن ما نستمر في تسميته مساعدة ليس إلا تبذيراً يهدف إلى تمتين البنى المولدة للبؤس، وفي المقابل ما إن تحاول الضحايا التي نُهبت منها أموالها التي تخصها، الابتعاد عن النظام الإنتاجي المعولم لتجد خيارات بديلة تتوافق مع تطلعاتها الخاصة حتى تنقطع عنها المساعدات[٤٥].

وعلى الرغم من ذلك فإن المنظمات الدولية الكبرى كما يذكّر بذلك مجيد راهنما أيضاً تعرف، بفضل التزام آلاف الأشخاص الذين يعملون في كل بلاد العالم وتفانيهم، كيف تكون منتبهة إلى أهمية النسيج الاجتماعي والتوازنات مع البيئة [١٣٦] لهذه الحياة التعاونية المسماة غنى الفقراء. لقد ذكّرنا فيما سبق بالدور المتميز كل التميز لدور الوسيط الذي كانت تؤديه شركة دولية، أعني مجموعة سويز Suez، إبان عدد من السنوات بين البنك الدولي، والبنك الأمريكي المشترك للتنمية (BID)، والتعاونية الهندية للتنمية (CAF) والحكومة البوليفية من أجل توزيع فعال للماء في لاباز وفي آل ألتو. إن هذه المؤسسات الضخمة قد أقرضت، بضمانة مجموعة سويز التي كانت تتفاوض مع

(٤٥) مجيد راهنما، م. س، ص٢٦٧ – ٢٦٨.

المجتمعات التقليدية ومع السلطات السياسية، لشركة أغوا ديل إيليمانيا مبالغ كبيرة إبان عدد من السنوات، بنسب فائدة أقل من تلك الموجودة في السوق المالي الحر، مما سمح بظروف أفضل لإيصال المياه لسكان تلك المنطقة من العالم. إن التوازنات الاجتماعية والإنسانية، ذلك الإجراء وتلك الوساطة، بين هؤلاء وأولئك، في إطار أن تلك المجموعة الدولية تمتلك إرادة سياسية وفلسفية من أجل تحقيق أهداف دقيقة ومحددة، تلك التوازنات هي التي تجعل بالإمكان الكفاح ضد الحاجة، وليس تلك المؤسسات المفرطة في القوة أو التي يزعم أنها كذلك، المزودة ببرنامج واسع، لا يمكن مراقبته مراقبة جيدة أو أنه طموح أكثر مما يلزم. إنه لمن الملاحظ أن الثقافات المختلفة والأديان المختلفة تتوافق لتشير إلى أن الثروات تظهر وتتحول بفضل الروابط التي لا تني تجدد صورتها بين البشر، وبين كل الأنواع الحية والطبيعة. إن الصلوات التي يتوجه بها البشر لربهم مخصصة لإصلاح دورة الطاقات الحيوية وانسجامها مع النظام الكوني. إن كل الجماعات والأشخاص الذين ينتمون إلى تلك الجماعات هم من ينبغي عليهم أنفسهم أن يكونوا مسؤولين عن ذلك الانسجام ويسهمون على استمراريته عبْر سلوكيات وأقوال خاصة به. بذلك تظل الثقافات والأديان منبعاً لا ينضب من الحكمة من شأنه إغناء الحاضر.

وإن تيبو غاجوس Thibault Gajdos، اقتصادي وباحث في المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) مهتم كل الاهتمام بالتفاعل بين الاقتصاد والفلسفة:

يتمثل دور الاقتصادي من ضمن أدوار أخرى في التعبير بمصطلحات واضحة عن الاختيار الذي قام به صاحب القرار الشعبي لهذا المؤشر أو ذاك، مثل مؤشر جيني[٤٦] Gini لقياس عدم المساواة، وفي توضيح القيم الأخلاقية الخفية... أما المنهج البديهي الذي يتمثل في تحديد هوية المبادئ الأساسية (المسلمات) التي تنجم عن المؤشرات فإنه يشكل لذلك أداة لا يمكن الاستغناء عنها.

---

(٤٦) L'INDICE DE GINI مؤشر جيني يتراوح بين صفر (ليس هناك عدم مساواة، كل الناس لديهم موارد متساوية) وواحد (شخص واحد يمتلك كل شيء، والآخرون ليس لديهم أي شيء).

ويلاحظ:

أن المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية – الإنسي Insee يخص بالاستخدام مؤشر تداخل الأعشار inter-décile، وأعني العلاقة بين الأكثر فقراً من نسبة ١٠٪ الأكثر غنى، والأكثر غنى من نسبة ١٠٪ الأكثر فقراً. وعندما يرى أحد مديري كاك ٤٠ CAC40 أن راتبه ارتفع، وأن من يتلقى راتب الضمان الأدنى قد انخفضت موارده فإن هذه العلاقة لا تتغير.

إن التماهي البيّن و الدقيق بين الغايات السياسية والمالية والبلاغية لمقياس عدم المساواة، الذي يعلن عنه في خطاب إيجابي بقدر ما هو حيادي يمكنه بذلك أن يقتضي أفعالاً أخرى تبادر إلى التقليل من حالات عدم المساواة، كما تقتضي خياراً اجتماعياً مختلفاً[٤٧].

إن القروض الصغيرة، كما تخيلها محمد يونس، البنغلادشي الأصل، وبنغلادش واحدة من أكثر دول العالم فقراً، وهو مؤسس بنك غرامين Grameen Bank، تلك القروض، وإن كانت لا تحل كل المشكلات، وتعرضت لبعض النقد، تشكل "ثورة صامتة" خارقة للعادة. إن هدفها أن تعطي [١٣٧] لأكثر السكان فقراً، والنساء على وجه الخصوص، إمكانية تقرير مصيرهن وتحديد ماهية الفقر التوافقي والبهيج، صيغة حياة قائمة على البساطة والتضامن، بلا أي طوباوية، بالمعنى الذي حملته حكاية طاغور أو الفكر الأرسطوطاليسي:

إن تعليم الاقتصاد علمني ما المال. والآن وأنا أدير مصرفاً، وأقرض المال، ويكمن سر نجاح استثماراتنا في عدد الأوراق النقدية المجعدة التي يحملها زبائننا الجوعى

---

(٤٧) حسبما جاء في مقال باتريسيا شيروبولوس Patricia Chairopoulos "تيبو غاجوس، رجل قرار"، صحيفة المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)، رقم ٢٢٢ – ٢٢٣، يوليو "تموز" – أغسطس "آب" ٢٠٠٨م، ص١٧.

D' après l' article de Patricia Chairopoulos, "Thibaut Gajdos, homme de décision", Le journal du CNRS, 222 - 223, juillet - août 2008, p. 17.

اليوم بأيديهم. ولكن ما يثير السخرية هو أن حركة القروض الصغيرة التي تحدث حول المال ومن أجله وبه لا علاقة لها ألبتة في جوهرها وفي أعماقها بالمال. إن القرض الصغير هو مساعدة كل شخص على الوصول إلى أفضل إمكاناته الكامنة. إنها لا تأتي على ذكر رأس المال المالي ولكنها تذكر رأس المال البشري. يشكل القرض الصغير قبل كل شيء أداة تحرر أحلام البشر، بل إنه يساعد البشر الأكثر فقراً من بين الفقراء على صيانة الكرامة، والحصول على الاحترام، وإعطاء معنى لحياته... إن صيانة الكرامة الشخصية، والسعادة، وتحقيق الذات، ومعنى الحياة أمور تحصلها بالعمل، والأحلام، وبرغبة الأفراد أنفسهم وإرادتهم[٤٨].

أليس اختيار الفقر، دون أن يكون حالة عرضية، واختيار المنطقة الوسطى الفاضلة بين الغنى والفقر، أليس هو أيضاً، اختيار مسار كوني، ممتد بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب؟

(٤٨) محمد يونس، نحو عالم بلا فقر، باريس، ج. سي. لاتيس، ١٩٩٧م، ص٣٤٠ – ٣٤١.
Muhammad Yunus, Vers un monde sans pauvreté, Paris, JC Lattès, 1997. p. 340 - 341.